الذكرى السادسة لإستشهاد
الرفيق القائد غسان كنفاني

شجرة الصبّار

«غسّان كنفاني جنين دنمًا في رحم اليأس فكان المعجزة»

①

هزته مأساة فلسطين من الاعماق لكنها لم تشده الى بحار اليأس او مستنقعات الاتكال • فراح يبحث في تلك السماء المظلمة عن نوافذ للتحدي ••• تحدى اليأس ليخلق الحياة والنهار من جديد •

ورغم جنينيته في ذلك الزمان ، وجد نوافذ عديدة ، نفذ من بعضها الى رحاب واسعة من الامل والتفاؤل وعلى عتبات البعض الاخر وضع قدما جمدها الحظ والاحتمال •

لكن العبور كان صعبا •• ولادات عسيرة واحدة تلو الاخرى ، ولكن كلها عسيرة • فبين اليأس والامل مسافة شاسعة : المسافة بين الواقع والرؤية الحالمة •

فخاضها ضروسا :

ضد الموت في جسده ،

ضد اليأس من حوله ،

ضد الجهل بين اترابه وابناء جيله نحو الامل والرؤية الحالمة •

غسان كنفاني الجنين الذي لم يشتد عوده بعد قاتل بضراوة المارد الجبار للامساك بخيوط الرؤية المستقبلية ••• لانها القدر والمصير ••

كما قاتل بضراوة على الجبهة الاخرى ، كي يفلت من حبال الاعتقال : حبال الهزيمة واليأس •• اغربت الشمس ولم يعد الامن حتى بالدماء مضرجا ، بل كسته غمامة سوداء ، فتغير الزمن وتبدل الظرف : فلم تعد الكرمة تنتج عنبا ولا شجرة التين تينا ، بل لم تعد لوريقات الصعتر طعمها الحاد اللذيذ • الارض جديدة ، لكنها تذكره بالاولى •

الجفاف قاس وجاف لكنه يشده ، دون هوادة ، نحو التراب الندي •

يصرخ في وجهه ان احتفظ بقطرات الدم وحولها عرقا تنفذ من خلاله نحو الامل ••

لتكن حبل السر الذي يمد الجنين بالحياة ويقطع كي ينمو الجنين نحو الحياة •

وكان غسان حبل السر •

امد الجنين بالحياة وانتهى كي ينمو الجنين نحو الحياة • كان الجنين والسر • وكان النمو نحو الزمان !

②

قبل آلاف السنين ترعرعت اشجار الصبار في مناطق خصبة من العالم • كانت اشجارا وارفة الظلال مرتفعة القامة عريضة الجذع ، اوراقها عريضة خضراء وملساء الملمس • تستقي حياتها من التراب المبلل وتتنفس عبر اوراقها العريضة وتغيرت الظروف وساد جفاف • واحاط باشجار الصبار اليأس • فقد هلكت كل الاشجار الاخرى وهلكت النباتات وابيضت الارض الحمراء بعد ان نشف الدم في خلاياها •

وقررت شجرة الصبار ان تتحدى الامر الجديد ••• رغم وجودها في بحر من الجفاف والموت ودمار الافق ••

وانطلقت من محيط اليأس لتتكيف مع الظروف الجديدة متحدية الجفاف والموت من ناحية (وهي الضعيفة الضعيفة) وناظرة للمستقبل، فتخلصت من اوراقها العريضة البراقة وحولتها الى ريش رفيعة لا تسمح للقيظ بان يبخر الماء من عروقها • فدرأت عن نفسها القتل بالجفاف ، وراحت بعدها تفتش عن طرق جمع طاقاتها ورصها في اشكال تتناسب مع طموحها لقبول التحدي ثم التصدي !

③

ملأ الحب حياة والحياة حبا • وامتشق السيف يحارب الشقوق في ذاته كي ينفذ هو والاخرون من شقوق النور في السماء المظلمة •

فاحتضن المرض وكظم عليه وهبط درجات « المطبعة » المظلمة وتنشق رطوبتها العفنة وعود عينيه على لمعان حروفها الرصاصية ••• كي ينير للاخرين طريق الامل ••

انهكه صف الحروف في المطبعة لكنه كان سعيدا فمنه ولهم كانت الحروف تصطف بسرعة انيقة اناقة ريشته الرقيقة ، لتنطبع في الاذهان قبل الورق • كان الحرف وسيلته الاولى ليخلق المعجزة من الجنين المعلق بحبل اليأس • واستمرت الاحرف وسيلته المعجزة لتحقيق الخلق الجديد •• في ظل الظرف الجديد نحو العالم الجديد •• عالم الامل •

قال لهم : مدوا الجنين باسباب الحياة يمدكم بعدها بالحياة •

واضاف لهم : اسباب حياة الجنين الجديد هي ذاتها اسباب انتهاء القديم •

وتابع : اقتلوا القديم اليائس بتنمية الجنين •• مارد المستقبل •

وعلمهم :

« وعد بلفور هو وعد المستعمر الذي لا يملك ، للصهاينة الذين لا حق لهم ، بارض فلسطين » •

وعلمهم : ان الوعد تحقق بالارهاب والعنف •

وعلمهم ان العنف وسيلتهم للتخلص من الوعد والموعودين والغاصبين • ونظمهم صفوفا تدرب اجسادها ليصلب عودها لتقاوم الجفاف والعنف وكي تستمر في العطاء : حب للحياة وحياة للحب •

نظمهم كي يقولوا كلمتهم :

فلسطين لنا ولبنينا بعدنا وافهمهم ان هذا هو نداء الحياة يسكبون من اجله العرق والدم والحياة •

ثم ارسلهم في الارض ينظمون صفوفا عريضة • وأرسلهم في الارض يضربون جذورا عميقة تتحدى وتعبىء وترص الطاقات كي تنمو نحو المستقبل والاحتمالات •

④

ولم يكن كافيا لاشجار الصبار ان تقلص اوراقها ريشا كي تعيش، فقد خف تبخر دمها • لكن حاجتها لدم جديد يبث في عروقها ، التي كادت ان تجف بفعل اليأس المحيط والقيظ الرابط ، حياة جديدة • تنمو معها وبها نحو المستقبل والاحتمالات فاعادت تنظيم امورها • فحيث الارض المنبسطة طورت جذورها لتصبح قصيرة الطول منفرشة على مساحة واسعة لتلتقط وتمتص كل ذرة من الماء تتلوى على السطح فقط دون ان تغوص •

وراحت تلتهم ذرات الماء ، وتحولها مصدر قوة وحياة وحيث الارض صخرية ضربت جذورها في الارض عميقا •• امتارا طويلة وشعبتها في التربة فصعب اقتلاعها وسهل عليها امتصاص رحيق الحياة من التراب•

فنمت في محيط اليأس وتحت هيمنة الجفاف القائظ نحو المستقبل والاحتمالات !

⑤

واستمر رجل الحب والحياة يعطي الحياة حبا والحب حياة • فقد كان الحب عنده شرطا من شروط الحياة وكان التحدي •

الاستاذ سليم : علمهم عن الوطن وما كان بامام •

ام سعد اعطتهم الحياة وما كانت بمتعلمة •••

راقبهم ••• جميع الذين ارسلهم في الارض ينظمون الصفوف ويضربون فيها جذورا عميقة •

وحدثهم عن قيظ الجفاف والرجال الذين غرقوا في الشمس فاحترقوا لانهم ابتعدوا عن رائحة الشعر المبلل بالندى •• رائحة الارض المرأة • وذكرهم بمعنى البندقية والارض ورسم لهم سماء جديدة لونها لون ازهار البرقوق ونسيمها نسيم نيسان الطري •

وبقي يتحدى • فحبل السر انهى المهمة والجنين كبر وصار العطاء متلازما والتحدي مستمرا • بدأت مرحلة التحضير للثورة • فقد قطعت حبال اليأس عندما انقطع حبل السر من بطن الجنين وصار يتنشق هواء الرؤية المستقبلية والاحتمالات •

قوي العود وأصلب وراح ينسج الخيوط نحو الافق نحو شقوق السماء المظلمة التي اتسعت •

ناولني ورقة رقيقة عليها كلمات مصفوفة :

الفتى خالد الحاج ابو عيشه الذي قوى عوده امس ، توجه نحو التراب الندي في الجليل الاعلى وما كاد يمتع نفسه برائحة الشعر المبلل والصعتر البري حتى اصطدم بالقيظ فاشتبك معه •

فجفت ورقة الصعتر ونشف البلل عن الشعر • عندها قرر ان يعيد للارض ما اخذ منها كي ينبت الصعتر من جديد وهوى مقبلا الارض نافضا فيها من دمه حياة جديدة •

ونبت في ذلك المكان شجرة صبار جديدة تنمو نحو المستقبل والاحتمالات •

وقال لي : اذهب بهذه الورقة وبلغ ولكن احترس فالفتيان ما زالوا يافعين والقيظ لهم بالمرصاد •

فقلت له : اي قيظ •• فالقيظ هنالك فوق الجليل •

اجابني بابتسامة دافئة ، دفء رائحة ارض بللها قطر الغيث :

« القيظ حيث القهر واعتقال الحرية » •

وانطلقت شرارات المرحلة الجديدة ••• مرحلة مد الحبال نحو الرؤية المستقبلية والاحتمالات •

وراح الفتيان يعدون العدة للوصول لشجرة الصبار التي نبتت في الجليل ••• للوصول لصعتر خالد الحاج ابو عيشه ••

والتهبت احرف غسان كنفاني التي اضاءت الطريق • واصبحت مصدر اشعال بعد ان كانت مصدر دفء في مرحلة النمو الجنينية •

فكشفها كلمات قنابل وزعها سنابل رماها • واشتد القيظ فهبط قاسما ضاربا معذبا • فجر اليأس لم يجف والجفاف كان بحرا من اليأس يلف الواقع ويبعده عن الرؤية المستقبلية •• عن التحدي والتصدي • ويشد بخيوط الفجر الاولى نحو الظلام يريد ان يطفىء فيها بوادر الامل •

اراد للشروخ التي توسعت في سماء الظلام ان تضيق • فكان التحدي اكبر والقتال اكثر ضراوة • فتجمع الذين انتشروا في الارض تعبئة واستنفرت الجذور الضاربة في الارض عمقا •

⑥

وعندما تتعرض اشجار الصبار لرجمات من القيظ اشد تلجأ فورا لاسلوب جديد لحماية النفس ولضمان الاستمرار في الحياة وتحدي ظروف الجفاف والقهر •

فتقوم بتجميع السائل من عروقها وتخلطه بافراز حليبي اللون يجعل من قدرة السائل نفسه على مقاومة التبخر قدرة كبيرة • وعندما تزول الهجمة تعود الشجرة لتوزيع السائل مجددا في العروق محتفظة بالمادة الحليبية في كنفها •

⑦

تدافع اليافعون نحو الجليل ونحو خالد الحاج ابو عيشه • وكان اندفاعهم ملتهبا يواجه القيظ بعنفوان الندى • واستل غسان كنفاني قلمه الرقيق خاطا لليافعين المندفعين فكرا سياسيا ودروسا في التنظيم والعنف الثوري •

وكبرت الموجة واشتدت الخيوط نحو الافق فاصبحت حبالا متينة • وتأرجح القيظ وسقط الندى مرة اخرى •

وبقيت كلمات غسان كنفاني تتابع بتدرج منطقي : تدرج قطع الخيوط مع بحر اليأس ومدها حبالا مع الرؤية المستقبلية واحتمالاتها • ولم تبخل لحظة عن حب الحياة وملئها بالحب •• وبقيت شوكته عنيدة وشكيمته قوية متحديا في ذاته الشروخ وفي الواقع ظلمته وفي المستقبل احتمالاته •

كان نضاله ينمو بنمو الجنين الذي قطع حبل السر منه ، ومطرقته عملت دون كلل لسبك الحروف المضيئة والملتهبة •

حروف تلهب الفتيان المندفعين نحو الجليل •

حروف تنظمهم خلال اندفاعهم حروف تسيس مسيرتهم نحو الرؤية المستقبلية وتعطيها عمقا وبعدا ببعدها نهائيا عن محيط القيظ والجفاف واليأس •

وامتدت حروفه نحو القيظ نفسه تفكك اوصاله • فتشتت هجماته وتخفف قدرته على تبخير الحياة •

⑧

واصبح الجنين ماردا ولم تتحقق المعجزة • فحبال اليأس التي التفت حول عنق الجنين قطعت ••• فنما • وحبل السر الذي غذاه كان عظيما ومعطاءا فاشتد عوده •

والخيوط التي نسجت نحو الشروخ المضيئة في سماء مظلمة نمت ولكن تشابكت وراح قلم غسان كنفاني ينهال بكلماته لحل التشابك كي تقوي الخيط وتتوسع الشروخ لتصبح نوافذ منيرة • فذكر الارتال المندفعة بثورات شعبهم واستخلص دروسها وعبرها •

وتحدث لهم عن تجارب الشعوب الاخرى وثوراتها ودروسها • ونقل لهم ملاحظات ام سعد عن الذين « لم ترضعهم امهاتهم بما فيه الكفاية » وعن الذين تسلقوا الشجرة قبل ان يقوى جذعها وعن الذين اكلوا الثمر قبل ان ينضج •• رسم لاصحاب الحيآة والارض طريق العودة للارض • الطريق التي ابتعد عنها الاعمى • وأسمعهم من حكايات الثورات ودروسها الكثير كي لا يقعوا في الحفر والمهاوي :دروس وحكايات لم يسمعها الاطرش • كل هذا والمطرقة تنهال على القيظ ، لا تهدأ ، لا تكل حتى يتمكن الذين انتشروا في الارض من نسج الحبال مع الذل والاحتمالات •

⑨

ويستمر الجفاف القائظ ويستمر النضال لتفكيك اوصاله كما علمنا غسان لكن بعض اشجار الصبار اعادت ريشها اوراقا وارفة فجفت الحياة فيها وسقطت ، تبخرت منها الحياة لانها ضلت الطريق الى الصمود في وجه القيظ وانتهت باوهام تفكك القيظ عن ضرباته اللاذعة •••

وبقيت اشجار الصبار الاخرى تتابع التحدي ••• تصمد في وجه القيظ وتناضل من اجل الحياة والعودة للايام وارفة الظل •

ويستمر غسان كنفاني في كل جنين حبل السر الذي يمد الحياة لينمو نحو الرؤية المستقبلية والاحتمالات التي حددها بوضوح الاعجاز :

الثورة ، النصر ، التقدم •

بسام ابو شريف